بائع السعادة

د / سمر ابراهيم - مصـر

إذا جعلت من حولك سعداء فستتضاعف سعادتك، ولكن إذا وزعت الأسى عليهم فسيزداد حزنك .إن الناس في الغالب ينسون ما تقول، وفي الغالب ينسون ما تفعل، ولكنهم لن ينسوا أبداً الشعور الذي أصابهم من قِبلك .. ..فهل ستجعلهم يشعرون بالسعادة أم غير ذلك!!.

البداية..

بيت صغير مبنى من الطوب اللبن ، يعيش فيه عجوزان رفيقان للحياة كل منهما مريض بمرض مختلف عن الأخر. ولكن كل منهما لا يعرف مرض الأخر. فواحد منهم كان يستطيع السير والوقوف على فترات في اليوم، والأخر لا يستطيع النهوض حتى لقضاء حاجته ، ظلا هكذا سنوات ولا أحد يخدمهما سوى فتاه صغيرة لم تتجاوز العشرين من عمرها كانت تسكن بالجوار، وكانت تحبهما لخفة ظلهما. فكانا يهونان عليها وحدتها فهى بلا أب أو أم أوأهل ، وهما أيضا بلا أبناء. فكان كل منهما يرى غايته في الآخر. وعندما كان يحل المساء كانت تذهب الى منزلها بعد أن تكون لبت لهما كافة طلباتهم ، وكانا العجوزان يتسامران ليلا فكان الزوج يحكى لزوجته عما بدا له من جمال الفتيات، والنزوات التى مر بها في شبابه. ولكنه لم يرى أجمل منها حُسناً فكانت تفرح كالطفلة الصغيرة وتتغنج عليه في دلال ، وهو سعيد لسعادتها

وظل كل يوم يطيل في الأحاديث الشيقة التى تعيد لهما شبابهما ويحكى عن شقاوته مع الفتيات الشقراوات والسمراوات والخمراوات . وهى أيضاً تحكى كيف كانت لها مغامرات في الحارة مع الشباب وكيف كانوا يعاكسونها ويتراهنون على جمالها وكانت لاتعيرهم إهتماماً وكأنها كانت تنتظر فارسها. وعندما جاء هو ليتزوجها كفت عن هذا العبث لأنه هو من خطف قلبها منذ الوهلة الاولى .. ظلا هكذا كل يوم عندما يحل المساء يجلسان ليتسامرا .. الزوج العجوز يجلس على الأريكة يحكى والزوجة القعيدة مستلقية على ظهرها تستمع في شوق معهود لأحاديث زوجها . وكانا كل منهما يغمض عينيه ليسمع الآخر ويتخيل كم كانا كل منهما حلم للاخر وأمنياته في الحياة. كان الزوج العجوز يصف زوجته بأنها أجمل نساء العالم بشعرها الذهبى وبياضها الناصع وجمالها الفتاك الذى مازل يؤثره وأنها هى حب حياته الذى عوضه عن الولد والأبناء ،فهى له الإبنة والزوجة ورفيقة الدرب. فكانت الزوجة العجوز تغوص في بحر العسل متأثرة بهذا الكلام المعسول من زوجها ورفيق دربها ..وفى يوم من الأيام طلبت العجوز أن تتأبط ذراع زوجها وتسير معه على حافة البحيرة التى بجوار منزلهما فقال لها زوجها إغمضى عينيك وسترى كيف نحن نسير عليها ، حيث تغمرنا أمواجها ونحن نرى الناس تؤجر المراكب ويبحرون فيها والأولاد وهم يلعبون ويلهون في الماء ، هل ترين الجميع حولها الآن . هل ترين المحبين الذين يجلسون تحت ظلال الاشجار التى حول البحيرة ؟ ماأجملها زهور ومأجمله إبداع للخالق .. هل ترين هذه الوردة الحمراء التى تتمايل على غصنها ؟؟ إجلسى هنا سأذهب لأقطفها لكِ .. يالله

مأجمل رائحتها الذكية والوانها البديعة ، هل ترين طائر الرقراق الذى يقف على الغصن هناك ؟ ماأجمله ...

وفيما كان يصف الزوج لزوجته العجوز هذه المشاهد التى كانت تتوق لها روحها ، وهى مغمضة عينيها ومبتسمة في سعادة عارمة، وكأنها تتمشى حقا على حافة البحيرة وترى كل هذه الأشياء المبدعة حيث المراكب ، والمحبين، والأولاد ، والزهور، والطيور ...فقد فاضت روحها الى بارئها وهى متبسمة كما لو كانت ترى الجنة والملائكة يزفونها .. وجاءت الجارة الصغيرة لتلبى طلبات العجوز بعد وفاة زوجته فوجدته يمكث بجوار الشباك يبكى فسألته لماذا تبكى ياجدى فقال لها من سأقص عليه بعد الأن خيالاتى !! كنت أريد إسعاد زوجتى أكثر من هذا .فهى طيلة حياتها كان لديها شلل اطفال ، ولكنها كانت تضغط على نفسها حتى تخدمنى الى أن وصل بها الحال أن رقدت نهائيًاَ ولم تعد تستطيع حتى أن تقضى حاجتها، وأنا طيلة عمرى كفيف ولكنى كنت أستطيع قضاء حاجتى دون أن تعلم أنى كفيف حتى لاأثقل على كاهلها مرارة خدمتى. وكنت أحكى لها عن مغامراتى الخيالية مع الفتيات وكأننى أرى كل شيء حتى أثير فيها الغيرة علىّ وأشعر بحبها لى وأراه في عباراتها وهى لاتعلم أنى لم أبصر ولم أرى جمالها رغم أنى كنت أوصفها وصفاً دقيقا كنت أتخيلها هكذا . فكنت أرى الوجد في عينيها وأسعد بصوتها المرتعش من الخجل .. كم كنت أتمنى أن يقضى نحبى معها ولم تتركنى وترحل وحدها ..